

مدخل منهجي لدراسة الفكر الاجتماعي العربي الحديث

محمد أحمد الزعبي

تتفق غالبية الأدبيات المتعلقة بالفكر العربي الحديث على اعتبار أن مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى تمثل مرحلة اليقظة / النهضة / البعث / عصر التنوير العربي ، وإن كانت هذه الأدبيات تختلف على بداية هذه الحقبة التاريخية (يؤرخها فاروق أبو زيد بعام ١٨٢٨ الذي هو تاريخ نشأة الصحافة العربية ، ويؤرخها حليم بركات بعام ١٧٩٨ وهو تاريخ الثورة الفرنسية ويطلق عليها تسمية المرحلة التأسيسية ، ويؤرخها البعض بظهور الوهابية على يد محمد بن عبد الوهاب [١٧٠٣ - ١٧٩٢] ، وشقيقتها السنوسية والمهدية ، ويؤرخها البعض بتأسيس الجامعة الإسلامية على يد جمال الدين الأفغاني [١٨٣٨ - ١٨٩٧] ، ويبدأها العديدون بدخول نابليون إلى مصر عام ١٨٠٣ ، ويقرنها آخرون بظهور محمد علي باشا في مصر . الخ)

يمكن إجمال الملامح الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات العربية في ظل المرحلة العثمانية ، والتي مثلت الخلفية التاريخية الموضوعية لظهور عصر التنوير العربي في القرن التاسع عشر ، بالآتي :

- سيادة العلاقات الاقطاعية على مستوى البنائين التحتي والفوقي ،

- هيمنة القطاع الزراعي في ثوبه المتخلف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٨٠ - ٨٥ في المئة) ،

- لم تكن القطاعات الاقتصادية الحديثة (تجارة ، صناعة / الـ ١٥ في المئة الباقية) بيد العرب المسلمين ، بل ولا حتى العثمانيين المسلمين ، وإنما كانت بيد الأقليات القومية والأوروبية (من أوروبيين ويونان وأرمن ويهود) .

- تعايش العلاقات الرأسمالية الأوروبية الوافدة ، مع العلاقات ما قبل الرأسمالية (القطاع القديم مع القطاع الحديث) ، مع العلاقات ما قبل الرأسمالية (القطاع القديم مع القطاع الحديث) ،

- أدت هذه الازدواجية إلى خراب الاقتصاد الفلاحي والحرفي ، حيث ترك الفلاحون أراضيهم هرباً من الضرائب التي زاد عددها على المئة نوع (فمن أصل ٣٢٠٠ قرية في إيالة حلب ، لم يبق سوى

٤٠٠ قرية في نهاية القرن الثامن عشر ، وفي القاهرة كان من بين ١٠٠ الف رجل يمثلون قوة العمل في نهاية القرن الثامن عشر ، ٢٥ ألفاً يعملون كحرفيين ، و ١٥ ألفاً كعمال زراعيين وصناعيين وخدميين [٤٠ في المئة من قوة العمل] ، بينما كان الباقون [٦٠ في المئة] يعملون في أعمال غير منتجة [عساكر ، أصحاب عقارات ، رجال دين ، تجار ، خدم] .

- كانت القوى المنتجة بعناصرها المختلفة على غاية من التدني والتخلف ،

- كانت اصناف الملكية السائدة هي :

● أملاك الدولة (الميري) ، وكان السلطان العثماني نفسه يعتبر المالك الحقيقي لها ، وكان يقطعها ويلزمها دائماً لأصحابه وأزلامه وأتباعه .

● الأراضي الوقفية (الرزق / الحبوسات) ، وكانت تخضع عملياً لكبار رجال الدين الوثيقي الصلة بالسلطة وبالاقطاع .

● الملكية الفردية الخاصة الصغيرة ، والتي كانت تتلاشى تدريجياً لمصلحة الصنفين الآخرين .

لقد انعكس هذا الواقع الاجتماعي - الاقتصادي على الحياة الفكرية العربية على حدّ وصف نقولاً زيادة كالتالي :

" أتى على العرب حين من الدهر ، أخذته فيه سنة من النوم ، فانقطعت فاعليته ، وانعدم نشاطه ، وانكفاً على نفسه ، وقبع في جحره ، واكتفى بقوقعته . بدأت هذه الفترة في القرن ١٤ ، أو حتى قبل ذلك في بعض الأماكن ، واستمرت حتى مختتم القرن الثامن عشر أو مفتح القرن ١٩ .

" واصبحت مراكز العلم من مدرسة سيدي يوسف في مراكش إلى القرويين في فاس ، والزيتونة في تونس ، والأزهر في القاهرة ، وغيرها تكتفي بأن تحتفظ بجذوة تحت الرماد ، لكن لا لهيب لها يحرق ، ولا وهج يلفح ، واكتفى المشتغلون بالعلم بأن يقرأوا علوم الدين واللغة . وكأنني بالمشتغلين في الأدب والعلوم والدين والتاريخ وغيرها ، شعروا بقلّة البضاعة ، فحاولوا تجويد الصناعة " (١) . أما بطرس البستاني فيتساءل متعجباً :

" أين الشعراء ، أين الأطباء ، أين الخطباء ، أين المدارس ، أين المكاتب ، أين الفلاسفة ، أين المهندسون ، أين المؤرخون ، أين الفلكيون ، أين كتب الفنون ، أين العلماء المحققون ، والأدباء المدققون ؟ " (٢) .

ولقد زادت طين هذه المآسي المادية والفكرية بلة سياسة التتريك التي شرعت تتبعها حكومة السلاطين العثمانيين ، ضاربة عرض الحائط بالعلاقة الحميمة والخاصة بين العرب والاسلام ، وبأنه لا بد للمسلم الحقيقي من أن يتعلم اللغة العربية التي هي لغة القرآن ، ولا بد بالتالي من ان تكون لغة الدولة الإسلامية الرسمية هي اللغة العربية .

وبينما العرب على هذه الحال من القهر والتخلف ، وصلن أفكار الثورة الفرنسية (الحرية ، الإخاء ، المساواة) ، وانهزام النظام الاقطاعي ، وانتصار الثورة الصناعية بقيادة الطبقة البرجوازية الأوروبية الناشئة ، وظهور الفكر القومي ، وتلاشي الامبراطوريات الممتدة لمصلحة الدول القومية . الخ عبر منافذ متعددة أبرزها مصر ولبنان ، وذلك من خلال :

- حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ / ١٧٩٩) ، حيث أحضرت معها أول مطبعة باللغة العربية (مطبعة بولاق) إضافة إلى بعثة من العلماء الفرنسيين قامت بدراسة الجوانب المختلفة للواقع الاجتماعي والاقتصادي والآثاري المصري .

- البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي باشا إلى أوروبا ، ولا سيما بعثة رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذي تعلم في الأزهر ، وأتم تكوينه الثقافي في فرنسا على يد كبار المستشرقين ، وقام بتعريب الكثير من الكتب العلمية الفرنسية ، وحرر جريدة الوقائع المصرية ، ونشر كتابيه : **تخليص الابريز في تخليص باريز ، والديوان النفيس بإيوان باريز** .

- التعليم والرحلات والصحافة والجمعيات والبعثات والطباعة والترجمة . الخ (٣) .

أدى تضافر وتداخل الجانبين . السلبي (غرس الاستبداد الرأسمالي الغربي فوق الاستبداد الاقطاعي التركي) ، والايجابي (أفكار حركة التنوير الأوروبية في الحرية والإخاء والمساواة والليبرالية والديمقراطية) إلى يقظة الأمة العربية ودخولها حلبة الحداثة ، عبر مجموعة من الحركات والثورات والشخصيات العلمانية و / أو الدينية .

وبحسب محمد عزة دروزة ، فإن أبرز مظاهر اليقظة العربية في مرحلتها المبكرة (قبل الحرب العالمية الأولى) (٤) قد تجلّى في :

- الحركة الاستقلالية عن الدولة العثمانية في كل من مصر وفلسطين (محمد علي باشا ، ظاهر العمر) .

- ثورة كتلة من زعماء مصر وقادتها ضد الاحتلال الفرنسي لمصر .

- الحركة الاستقلالية التي حمل لواءها الزيديون في اليمن لإجلاء العثمانيين .

- الحركات الدينية الإصلاحية العرب - إسلامية (الوهابية ، السنوسية ، المهديّة) .

- ثورة الضباط المصريين بقيادة أحمد عرابي ضد الخديوي توفيق عام ١٨٨٢ .

- النهضة الأدبية والعلمية (انتشار المدارس المختلفة : ابتدائية ، إعدادية ، عالية) .

- الجمعيات الأدبية والدينية والسياسية (العلنية منها والسرية) في بعض الأقطار العربية ، والتي من أبرزها :

* **العلنية** : رابطة الوطن العربي (١٩٠٤) ، جمعية الإخاء العربي العثماني (١٩٠٨) ، المنتدى الأدبي (١٩٠٩) ، حزب اللامركزية (١٩١٢) ، المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣) .

* **السرية** : الجمعية القحطانية (١٩٠٩) ، الجمعية الثورية العربية ، حزب العهد ، جمعية العلم الأخضر ، جمعية العلم ، جمعية العربية الفتاة (١٩١١) ، جمعية النهضة اللبنانية .

- اتساع نطاق الطباعة ، وبالتالي ، الثقافة ، ويبدو أنه قد فات الأستاذ دروزة أن يشير إلى التمردات الفلاحية التي قامت ضد الاقطاعيين والمليّن الأتراك وأعاونهم في بعض الأقطار العربية ، مثل العاميات الشعبية في لبنان (عامية انطلياس ودور طانيوس شاهين ، و عامية لحفد) .

يصف حلیم بركات ، الاستاذ في جامعة جورج تاون الأمريكية ، فكر المرحلة التأسيسية (١٧٩٨ - ١٩١٤) ويقسمها كالتالي :

- التيار الديني الذي انطلق في القرن التاسع عشر من مقولة تقوية الخلافة الاسلامية في وجه الغزو الأوروبي المسيحي . وقد ضم هذا التيار جماعتين متنافستين هما :

أ - جماعة تقليدية ارتبطت بالخلافة العثمانية وحاربت كل دعوة للإصلاح ، وهي الجماعة التي ارتبطت باسم ابو الهدى الصيادي (ت ١٩٠٠ م) الذي كان مستشاراً للسلطان عبد الحميد ، والذي شارك في اضطهاد الأفغاني وعبدة الكواكبي .

ب- الجماعة السلفية الاصلاحية التي اهتمت بإحياء الدين الاسلامي والعودة به إلى نقاوته الأولى ، والتي انتقدت المؤسسة الدينية الرسمية ، وعارضت السلطة في كثير من الأحيان . أبرز ممثلي هذه الجماعة السلفية :

جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٨) الذي حاول أن يزواج بين الأخذ ببعض منجزات الحضارة الأوروبية (الحكم الدستوري ، العقلانية ، ..) ، وبين الدين الاسلامي ، على أن يظل الولاء الديني هو الولاء الأساسي الذي ينبغي ان تقوم على أساسه الجماعات البشرية ، وهو ما جعله يدعو إلى الجامعة الاسلامية . ويعتبر كل من الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) من تلاميذ الأفغاني وأتباعه .

تقوم آراء الأفغاني في التجديد الديني على أن السبب الأول في تدهور الحضارة الإسلامية هو " إهمال ما كان سبباً في النهوض . ألا وهو ترك حكمة الدين ، والعمل بها ، وهي التي جمعت الأهواء المختلفة ، والكلمة المنفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبية الجنس وقوته " ، وبالتالي فإن عوامل نهوض الأمم تقوم على : تحرير العقل من الخرافات والأوهام ، وتحرير الفكر الديني من قيود التقليد ، وفتح باب الاجتهاد . فقد ذكر في مجلسه مرة قولاً للقاضي عياض تعصب له بعضهم فقال الأفغاني : " يا سبحان الله ، إن القاضي قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق . وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد من تقدمهم ، فقد اطلقوا لعقولهم سراطها ، فاستنبطوا و قالوا وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأنوا بما يناسب زمانهم ويتقارب مع عقولهم " . وحول مسألة الاجتهاد يقول الأفغاني " ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد ؟ أو أي إمام

قال : إنه لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليفتقه بالدين ، أو أن يهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه " (٥) .

- التيار الليبرالي (في سوريا ومصر بخاصة) ، حيث شدد هذا التيار على الهوية القومية كبديل للخلافة أو الجامعة الإسلامية ، وعلى العلمانية كبديل للسلطة الدينية ، وعلى العقلانية كبديل للايمانانية المطلقة ، وعلى التحرر الاجتماعي (وبخاصة تحرر المرأة) كبديل للنوع التقليدي ، وعلى التطوع نحو المستقبل كبديل للتطلع نحو الماضي ، وعلى الوعي القومي كبديل للوعي الطائفي والقبلي والمحلي ، كما نادى بأفكار الاندماج الاجتماعي ، وضرورة احياء اللغة العربية والإقبال على التعليم الحديث . أما أبرز ممثلي هذا التيار فهم : بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٩١) ، ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) ، يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) ، جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) ، قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) ، صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦) ، محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) ، رفيق العظم (١٨٦٥ - ١٩٢٤) ، شكيب ارسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٥) ، أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ - ١٩٣٦) ، ولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٢١) ، معروف الرصافي (١٨٧٥ - ١٩٤٥) .

التيار التقدمي الثوري الذي التقى مع التيار الليبرالي في أفكار القومية والعلمانية والعقلانية والتحرر الاجتماعي ، ولكنه زاد عليه في أنه كان أكثر راديكالية ، وانه كان على تماس مع قيم ومبادئ الاشتراكية (العلمية والوطنية) . أبرز أعلام هذا التيار : عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٥ - ١٩٠٢) ، شبلي شميل (١٨٥٠ - ١٩١٧) ، فرح انطون (١٨٤٧ - ١٩٢٢) ، وسلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) الذي يمكن اعتباره مخضراً بسبب معاشته كلاً من مرحلة النشأة والمرحلة التالية لها (مرحلة ما بين الحربين) .

ويتبين من استعراض الاطروحات الاساسية عند كل من هذه التيارات الثلاثة السابقة ، أن إعطاء العقل ، وبالتالي الاجتهاد دوره في مسائل الدين والدنيا ، وضرورة أن يعتمد تقدم الأمة على جناحي البرهان والعرفان معاً ، كانت تمثل القاسم المشترك لهذه التيارات ، قبل أن تختلف بهذه الدرجة أو تلك ، بهذه الصورة أو تلك ، على المسائل الأخرى حدثت بعد الحرب العالمية الأولى وبسببها جملة من التغيرات والأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية على المستويين العالمي والعربي ، ترتبت عليها جملة من النتائج السلبية التي ما زلنا نحصد ثمارها المرّة ، ونعاني من آثارها المؤلمة حتى هذه اللحظة . أبرز هذه الأحداث والتغيرات :

- انتقال الوطن العربي من تحت نير العثمانيين المهترىء ، إلى تحت نير الاستعمار الرأسمالي الأوروبي الفتى والقوى .

- تجزئة الوطن العربي إلى كيانات هجينة مفتعلة ، وتحويلها إلى مستعمرات وظيفية ، وتقاسمها بين الدول الاستعمارية المنتصرة في هذه الحرب ، الأمر الذى حل معه الولاء القطري محل الولاء القومى ، والولاء العصبوي (القبلي والديني والطائفي والجهوي) محل الولاء الوطني .

- إعلان بلفور وعده المشؤوم المتعلق بإعطاء فلسطين وطناً قومياً للصهيونية العالمية ، الأمر الذى ترتبت عليه بداية انتداب بريطانيا العظمى على فلسطين ، ولاحقاً طرد الشعب الفلسطيني من وطنه وإحلال الكيان الصهيوني محله .

- انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا وقيام الاتحاد السوفياتي .

وقد تابع الاستعمار الأوروبي الجديد للوطن العربي سياسة التطبيع والتخليف التركية ، ولا سيما :

- المحافظة على علاقات الانتاج الإقطاعية ، بعد تهجينها ببعض علاقات الانتاج الرأسمالية ،

- محاصرة الصناعات الوطنية التقليدية وطردها من السوق لمصلحة الصناعات الرأسمالية الوافدة ،

- تشويه الاقتصاد الزراعي الوطني وتحويله إلى اقتصاد موجه ، وحيد الجانب والاتجاه بما فيه مصلحة الصناعة الغربية ،

- المحافظة على الانقسام العمودي في المجتمع العربي (القبلي ، الطائفية ، الانقسام الديني ، الانقسام القومي) وتوظيفه في خدمة سياسة فرق تسد الاستعمارية المعروفة ،

- نشر وتعميق الفكر الاقليمي في الوطن العربي (الفرعونية ، القومية السورية ، الأمازيغية) على حساب القومية العربية ،

- محاولة تفكيك العروة الوثقى بين العروبة والاسلام ، بواسطة تشجيع كل من التطرف القومي والتطرف الديني .

ومع ذلك ، فقد شهدت مرحلة ما بين الحربين عدداً من التطورات الايجابية ، على الصعيد العربي ، كان أبرزها :

- اغتناء الوعي السياسي القومي بالمضمون الاجتماعي (الديمقراطية ، العدالة الاجتماعية) ،

- الانتشار النسبي للفكر العلمي على حساب الفكر الغيبي الميتافيزيقي والخرافي ،

- تنامي عدد المثقفين ، ولا سيما ، الطلبة والعسكر والموظفين ،

- ظهور العمال كقوة أساسية ذات أفق طبقي ،

- ظهور الانقسام الأفقي (الطبقي أساساً) في المجتمع ، على حساب / إلى جانب الانقسام العمودي ،

- تراجع الاقتصاد الطبيعي (الزراعي أساساً) - جزئياً - لصالح انماط الانتاج الحديثة (الاقتصاد الصناعي والخدمي) ،

- نمو القطاع الحضري ، وظهور عدد من الصناعات المتوسطة والخفيفة ، وتطور الخدمات الصحية وما ترتب عليها من الانفجار السكاني .

عندما استيقظ العقل العربي / الانسان العربي على وهج الحضارة الغربية التي شرعت تلف العالم والعالمين في القرن التاسع عشر الميلادي ، وجد نفسه في وضع معقد وصعب ومتشاكل ، وأنه مسحوق ، مرتين ، مرة أمام المدفع ، ومرة أمام المصنع ، ومتخلف لأنه مسحوق ، ومسحوق لأنه متخلف ، وأياً كان الوضع والسبب ، فإنه بحلول القرن العشرين بات مدعواً إلى مغادرة ذلك الكهف الذي دامت إقامته فيه قرابة الخمسين عقداً من السنين . وقد كان السؤال المطروح على هذا العقل ، ولا سيما ونحن أمام المستجدات العالمية التي بدأت مع انتهاء الحرب العالمية الأولى : من أين ؟ وإلى أين ؟ وكيف ؟

- **عازد البعض بالماضي** المجيد للأمة ، كمهرب من حاضرها (نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠) المهين ، حيث ذهب إلى " الازمنة البعيدة التي كان فيها آباؤهم يثيرون رعب آباء الذين يحكمونهم اليوم " (٦) . وبحسب فرانز فانون ، فإن البحث المحموم " عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعماري إنما يستمد مشروعيته من حرص المثقفين المستعمرين [بفتح الميم] على أن يبتعدوا قليلاً إلى الوراء أمام الحضارة الغربية التي يوشكون ان يغوصوا فيها " (٧) . إلا أن هذا العياد بالماضي - على ما يرى المرحوم صدقي اسماعيل - لم ينقذ انسان البلدان المتخلفة من واقعه المظلم ، فهو سواء أكان في الماضي " مغامراً فينيقياً ، أو مشرعاً بابلياً ، أو عالماً مصرياً ، أو فارساً جاهلياً ، أو مسيحياً يبشر برسالة الروح ، أو مجاهداً مسلماً يغزو العالم ، فإنه في الواقع نموذج للكائن البشري المعذب الذي يسحقه شقاء الحياة والقلق على المصير ، ويجلله عار الرضوخ للإرادات الأجنبية " (٨) .

- **عازد البعض بالحضارة الغربية** ، في صورة هروب إلى الأمام حيث الايديولوجيات الجاهزة ولا سيما الايديولوجيتين الرئيسيتين ، الرأسمالية والاشتراكية ، وحيث الطريق إلى الليبرالية سالكة للانتقال من المجتمع الاقطاعي التقليدي إلى المجتمع الصناعي الحديث .

- **وهناك اتجاه ثالث** عزّ عليه الهروب من المشكلة ، سواء إلى الوراء أو إلى الأمام ، إلى اليمين او إلى اليسار ، وشرع يبحث لنفسه عن طريق خاصة /ثالثة ، تجنب الأمة الخيارات الخاطئة وتأخذ بيدها إلى بر الأمان ، طريق تستحضر ايجابيات الماضي (التراث) وتمزجها بايجابيات الحاضر (الحدثة) ، وصولاً إلى مجتمع عربي موحد قائم على ايجابيات أثنافي عصر النهضة الثلاثة التي سبقت الاشارة إليها (الحرية ، الإخاء ، المساواة) ، وعلى المزوجة الخلاقة بين العقل والنقل ، وبين القومية والاشتراكية . ولعل ساطع الحصري وزكي الارسوزي وميشيل عفلق وجمال عبد الناصر قد ولدوا من رحم هذا التيار .

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بل وبسببها أيضاً ، حصلت على المستويين القومي والدولي جملة من التغييرات التي كان للدول المنتصرة في هذه الحرب (الدول الرأسمالية الغربية والولايات المتحدة) اليد الطولى فيها . أبرزها :

● حصول عدد من الاقطار العربية على الاستقلال السياسي ، وانضمامها إلى منظمة الأمم المتحدة .

● تأسيس جامعة الدول العربية (١٩٤٥/٥/٢٢) ، وانضمام الدول العربية تبعاً إليها .

● ظهور ما سمي الاستعمار الحديث ، بنتيجة صعود الولايات المتحدة الأمريكية ، وهبوط الدول الاستعمارية التقليدية التي كانت تمثل ما عرف بالاستعمار القديم (بريطانيا العظمى ، فرنسا ، اسبانيا ، البرتغال) .

● اتساع رقعة ونفوذ المعسكر الاشتراكي ، وخاصة بعد تبني الصين للنظام الاشتراكي .

● صدور قرار تقسيم فلسطين (القرار ١٨١) بين العرب والصهاينة (٢٩ / ١١ / ١٩٤٧) ، وتصويت الاتحاد السوفياتي إلى جانب هذا القرار ، وقبول بالتالي معظم الاحزاب الشيوعية العربية بهذا القرار ، الأمر الذي ترتب عليه انقسام حركة التحرر الوطني العربية منذئذ حول القضية الفلسطينية .

● ترسيم الدول الاستعمارية ، ولا سيما بريطانيا (العظمى) لحدود دول اتفاقية سايكس - بيكو العربية ، بما يجعل من هذه الحدود المصطنعة قنبلة موقوتة يمكن أن تفجرها هذه الدول الاستعمارية في أي وقت تراه مناسباً لحماية مصالحها الاستراتيجية في المنطقة ، كما هي حال الحدود العراقية - الكويتية ، وحدود مشيخات / الامارات العربية المتحدة ، والحدود السورية - التركية ، والسورية - اللبنانية ، الخ .

● إقامة " دول " جديدة لم تكن موجودة أصلاً ذات وظائف استعمارية محددة ، يأتي في طليعتها حماية الكيان الصهيوني الذي كانت تشيّد أسسه وركائزه الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية .

● هزيمة الأنظمة العربية فيما سمي النكبة (حرب ١٩٤٨) ، والتي ترتب عليها - أي الهزيمة - تأسيس الكيان الصهيوني وتشرّد الشعب العربي الفلسطيني في كل أرجاء المعمورة (الشتات) ، ولا سيما الدول العربية المجاورة لفلسطين (دول الطوق) .

● ظهور مقولة التخلف والدول المتخلفة / النامية / التابعة / العالم الثالث ، كحواشي وتوابع للدول الصناعية (المتقدمة / العظمى) الرأسمالية منها والاشتراكية .

لقد ترتب على هذه المعطيات الجديدة :

● تقلص النفوذ السياسي والأدبي للبرجوازية الوطنية ولأحزابها ، والتي هي أساساً عبارة عن مركب برج إقطاعي ، مقابل تزايد كم وكيف ونفوذ الفئات المتوسطة ، والبرجوازية الصغيرة الناشئة .

● بروز دور الجيش على المسرح السياسي ، بسبب الصراع العربي - الصهيوني ولكون شريحة الضباط وضباط الصف تعتبر فئة اجتماعية متطورة ، قياساً على الفئات الاجتماعية الأخرى ، ذلك أنها فئة متعلمة ، وعلى علاقة بالتقنية الحديثة المرتبطة بتكنولوجيا السلاح ، إضافة إلى كونها فئة مترابطة ومنضبطة وظيفياً .

● تنامي الوعي الوطني والقومي ، الاجتماعي منه والسياسي ، بما في ذلك الوعي المعادي للاستعمار والامبريالية .

● بروز ظاهرتين جديدتين على المسرح الدولي والقومي (ظاهرة الشعب الفلسطيني المشرد ، وظاهرة الدول النفطية) سيكون لهما الأثر الكبير والبارز على عملية التطور والتغير الاجتماعي اللاحقة في المنطقة .

● سقوط عدد من الأنظمة الملكية والتقليدية العربية ، لمصلحة أنظمة جمهورية جديدة ، وذلك على يد الجيش والقوات المسلحة (ثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر ، ثورة ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ في العراق ، ثورة ٢٣ ايلول/سبتمبر ١٩٦٢ في اليمن) .

● ظهور وتبلور التيارات السياسية الرئيسية في الوطن العربي ، والتي تمثلت بـ :

- التيار الليبرالي ذي النزوع القومي ، والمتبني في بعض الحالات لشعار الاشتراكية ،

- التيار الإسلامي بمختلف نزعاته ومستوياته وانتماياته ،

- التيار الماركسي - اللينيني ، أيضاً بمختلف انتماياته ونزعاته ،

- التيار القومي العربي الذي كان يحاول إيجاد صيغة توفيقية لايدولوجيا خاصة / طريق ثالثة ، تتطوي على كل الايجابيات المفترضة في التيارات الثلاثة الأخرى (عصبه العمل القومي ، الكتلة الوطنية ، حركة القوميين العرب ، ، الاشتراكيون العرب ، حزب البعث العربي ، ولاحقاً الحركة الناصرية) .

هذا مع العلم أن حالة الصراع بين هذه التيارات الأربعة وتفرعاتها ، كانت هي السائدة ، وذلك كانعكاس لتركيبها الاجتماعي والطبقي والايديولوجي المتباين ، وأيضاً لأن التطور الفكري العربي في هذه المرحلة التاريخية قد تميز - من جملة ما تميز به - بأنه بات يتشكل في أقطار عربية ، تحولت وبفضل اتفاقية سايكس - بيكو سيئة الذكر إلى :

- أقطار منفصلة بعضها عن بعض ، سياسياً وقانونياً ، رغم انضوائها تحت عباءة جامعة الدول العربية ،

- اقطار على درجات متفاوتة قليلاً أو كثيراً ، في سلم التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي ، وأيضاً في الحجم السكاني والمساحة الجغرافية ،

- أقطار على مسافات متفاوتة جغرافياً وسياسياً وايديولوجياً وقومياً من القضية الفلسطينية ،

- اقطار على درجات متفاوتة من التجانس الاجتماعي والطبقي والديني و الطائفي .

- اقطار على درجات متفاوتة من النمو الاقتصادي ، ومن المستوى المعيشي ، ولا سيما بين الدول النفطية (الخليجية خاصة) والدول الأخرى غير النفطية ، بعد دخول عدد من الدول العربية المعروفة نادي الدول المنتجة للنفط (OPEC) .

ومما يؤسف له ، أن الفكر السياسي والاجتماعي العربي النهضوي ، بدلاً من أن يعمل على تجاوز ورتق هذه المسافات بين الجماعات والأقطار العربية ، فإنه - على العكس من ذلك - قد خضع لها ، وتكيف مع تمفصلاتها بل وعمل في كثير من الحالات على تثبيتها وتعميقها ، إلى درجة اتسع معها الرتق على الراتق الذي بات عاجزاً عن إعادة المياه إلى مجاريها والأمور إلى نصابها ، حتى ان الجمهورية العربية المتحدة التي قامت عام ١٩٥٨ ، إثر استفتاء شعبي ديمقراطي لامست نسبته حدود الاجماع ، لم تستطع الصمود لأكثر من ثلاث سنوات ، إذ نخرتها ، ومن ثم قضت عليها ، تلك الخلافات والاختلافات بين وضمن الأطراف النهضوية بل والوحدوية في كل من سوريا ومصر على حد سواء .

تمثل هزيمة النظامين المصري والسوري أمام اسرائيل ، في حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ تشكل الفكر العربي الحديث والمعاصر ، ذلك أنها اسقطت القناع عن نقاط

الضعف في مكونات هذا الفكر ، ولا سيما الفكر السلطوي الذي كان متربعاً على عرش الحكم في عدد من الأقطار العربية عام ١٩٦٧ ، والذي فقد مشروعيته الآن ، تماماً كما سبق لفكر مرحلة النكبة ، أن فقد مشروعيته بعد حرب ١٩٤٨ ، حيث أطاحت به ثورات /انقلابات ١٩٥٢ في مصر ، و ١٩٥٨ في العراق ، و ١٩٦٢ في اليمن ، و ١٩٦٣ في سوريا الخ . وقد عجزت بسبب طابعها العسكري غير الشعبي وغير الديمقراطي عن إحداث أية نقلة نوعية إيجابية في بنية هذا الفكر سواء قبل سقوط جدار برلين أو بعده . إن كلاً من انتفاضة الحجارة ، وانتفاضة الأقصى ضد الاحتلال الاسرائيلي في فلسطين ، والمقاومة الوطنية للاحتلال الأمريكي وأعوانه في العراق ، قد وضع الفكر العربي والمفكرين العرب أمام مخاض نظري وعملي معقد وعسير ؛ مخاض يمكن أن يكون بداية النهاية لخروج الأمة العربية من عنق الزجاجة إلى فضاء الحرية والديمقراطية اللتين زاد انتظارها لهما عن ٥٠٠ عام .

ان تململ هيئات المجتمع المدني ، ولجان حقوق الانسان ، وظهور التيار الاسلامي الوسطي والمعتدل في معظم الاقطار العربية ، وهذا التأييد الشعبي الكاسح للمقاومة الوطنية في فلسطين والعراق ولبنان ، إنما يمثل أكثر من خطوة كبيرة على طريق الألف ميل □

- (١) انظر ورقة نقولا زيادة ، في : الفكر العربي في مائة سنة : بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية المنعقد في تشرين الثاني ١٩٦٦ ، أشرف على تحريره فؤاد صروف ونبيه أمين فارس (بيروت : منشورات العيد المنوي ، ص ١ .
- (٢) انظر ورقة بطرس البستاني ، في : المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .
- (٤) محمد عزة دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة : انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٧١) .
- (٥) علي محافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، ١٧٩٨ - ١٩١٤ : الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية ، ط٤ (بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) ، ص ٧٤ .
- (٦) ج . بولان ، وجهاً لوجه مع القومية العربية (بيروت : [.د.ن.] ، ١٩٦٣) ، ص ٧٨ .
- (٧) فرانز فاتون ، معذبو الأرض ، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٣) ، ص ٢٠٠ .
- (٨) صدقي اسماعيل ، العرب وتجربة المأساة (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٣) ، ص ١٢٦ ، وحول هذا الموضوع ، انظر : محمد أحمد الزعبي ، التغيير الاجتماعي بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي (دمشق : مطبعة الروضة ، ١٩٨١) ، ص ٨٢ و ١٦١ - ١٦٣ .